أفول نجم

بقلم.. شيماء عبد الرزاق /المغرب

لأول مرة منذ أعوام، أحست نجم بأنفاس الصقيع المنعشة تداعب بحنان وجهها الشاحب المعفر بآثار الخيبات. شعورغريب بالحرية تسلل إلى شراييها أمام قبلات الثلج المسود إثر ملامسته شغاف قلبها، شعور منحها قوة لتتسلق العتبات أمامها، وتستعيد زمام حياتها الذي صار على مرمى من يديها الآن؛ لا شيء سينغص أحلامها بعد اليوم، لا أحد سيلوث طهرها بأناملها المسودة، لا شيء سيغتال ما تبقى لها من آمال.

على سقف الكآبة، ارتفعت قامتها الهزيلة باستسلام، ساقاها المرتجفتان تتمايلان بهلع، وهي تحاول أن توازن نفسها على البرزخ الدنيوي الفاصل بين النور والظلمة في أجمل لحظات اتحادهما.

مشت خطوتين مرتبكتين ثم توقفت، المدينة تحتها تبدو بظلالها القاتلة كأنها ترقبها بصمت مستفز هز كيانها. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. هدوء زكم أنفها بعبير الخوف، وثقل الزمن.

هبت رياح قوية بعثرت الليل في شعرها الفاحم، وأرسلت في أوصالها رعشات برودة، زادت من سكون الظلام الذي يعشش داخلها.

هل تدفء الحياة ما أثلجته السنين؟ هل تبعث الأيام ما اغتالته الوحوش؟ ماتت الأحاسيس والمشاعر، ماتت اللهفة، وجفت الدموع، وذوت الشعلة التي كانت تتقد، لم يعد لنجم نور إلا اسمها، لكنها نجم آيل للأفول، نجم يقف بصعوبة فوق الخط الفاصل بين الموت والحياة على سطح بناية متهالكة، استعدادا ليرتمي في أحضان الأبدية.

لم يبق لها الكثير قبل أن تقدم على الخطوة الكبرى، الدقائق تلتهم الثواني بسرعة جنونية، والشمس التي ينعكس لمعانها في عيني نجم المظلمتين، تمشي بهدوء ساحر نحو مخدعها، موقدة في طريقها شعلة الذكريات، التي تحررت من قيودها الأبدية حاملة معها ماض ينزف عذابا.

لا تزال نجم تذكر اللحظات التي جرفت حياتها نحو حقل الآلام، بعيدا عن السعادة والفرح. في ذلك اليوم عندما اجتازت عتبة باب هذه البناية المهترئة، ومشت بخطى مرتبكة داخل البيت الذي سيخذلها، أدركت بغريزتها الطفولية أن تلك هي بداية غروب الشمس التي لن تر نورها أبدا.

كل شيء في ذلك المنزل العتيق الذي خضب ذاكرتها بلون قرمزي لا يشيخ، كان يتوعدها بحكاية ستحفر أجديتها القاتمة في دمار قلبها، بدءًا من الباب الذي لا يتوقف عن السعال، وانتهاءً بالغرفة التي ستتقاسم أمتارها الخمسة مع الليل الفاحم.

سنوات مرت على تلك الليلة الأولى التي قضتها نجم في حصن الكآبة ذاك، سنوات منذ أن اغتصبت طفولتها بوحشية خلفت آثارا أثخنت الروح قبل الجسد. لم تمنح قط فرصة لتنضج، إذ كان عليها أن تكبر دفعة واحدة، وتشرف بقامتها الهزيلة تلك، على أشغال البيت وتلبية

رغبات السيد والسيدة وإلا فإن بدنها سيصير لوحة حية تتلذذ الأسياط بزخرفتها.

كم مضى من العمر على غياب الفرح من حياتها؟ منذ وفاة أبويها وانتقالها للعيش مع عمها، لم تعرف للحبور طعما. لا يزال ذلك الصباح الذي استيقظت فيه حائرة على سرير المشفى الأبيض، حيا في ذاكرتها. حينها قيل لها أن والديها قضيا نحبهما بسبب مرض ألم بهما، لكن الجراح على جسدها والصراخ الحاد الذي غمر أذنيها، إثر انحراف السيارة، قبل أن يبتلعها الظلام، أخبراها قصة أخرى؛ قصة أكدت صحتها نظرات الممرضات المتعاطفة نحوها، وهي تغادر المشفى بخطوات متعثرة مع عمها، الذي سيتولى مهمة الاعتناء بالطفلة قربه.

أغمضت عينيها بقوة، في محاولة يائسة لطرد الذكريات، لا مزيد من الحزن، لا مزيد من المعاناة، ستندمل الآلام قريبا، ولن تضطر لأن تحضن الحنين، مساءً، لعبة تلهيها عن بكاء الجراح. ولن تستمع لعصافير بطنها تزقزق، ورائحة الطعام تزكم أنفها، بينما هي تلوك الحسرة واليتم، لن يملأ طنين الشتائم أذنيها من جديد، لن يحدث هذا، بعد اليوم.

نظرت إلى اللجة المتلاطمة من البياض أسفلها. خلف ابتسامة الطريق المشعة، يختفي سواد قاس، هو مستقبلها الذي لا ماضي له. لم يعد بإمكانها التراجع. تنفست بعمق، أخذت خطوة واحدة نحو الفراغ ثم هوت كورقة هشة في مجرى الرياح كانت تراقص الحياة على ساحة الأثير. جسدها ذو الستة عشر خريفا يتمايل ببطء في رقصة وداعها الأخيرة للدنيا، قبل أن تتلقفها أحضان الموت لتخلصها من واقعها المرير.

أغمضت عينيها بتراخ وهي تنتظر مصيرها. انتابها إحساس غريب بوقع الحياة داخلها: دقات قلبها المتسارعة، شهقاتها العميقة... كل خلية في جسدها تتشبث بالدنيا، بينما روحها استكانت للموت.

عما قريب، سيحيط بها الظلام قنطرة عبور نحو المجهول، ستتخلص حينها من ركلات عمها، وكدمات زوجته العابسة دوما، وستصبح، لأول مرة منذ دهر، حرة.

تهشم رأس نجم عندما التقى في صرخة مدوية بإسمنت الطريق القاس، انفتحت آهات ذاكرتها، فتسلل الماضي من جراحها أحمر دمويا مكونا بقعة واسعة حول وجهها الملائكي النائم بسكون. غطاها الثلج كفنا أبيض في انتظار قدوم سيارات الإسعاف، وبكتها السماء مرثية حزن غلفت روحها.

لم تدم الجنازة طويلا قبل أن تتلقفها الأيدي بعجل، بينما الزمن فيها توقف. كل محاولة لإسعافها باءت بالفشل. لم يدرك أحد أنها ميتة منذ زمن، أن روحها توفيت يوم نالت حصتها الأولى من التعذيب التي تلتها فيما بعد حصص لا تنتهي.

مأساوية هي الحياة التي سرقت من أصحابها في غمرة الألق والسعادة، سوداوية هي النفس التي دفعت إلى الانتحار دفعا. ملعونون هم الجلادون الذين قادوا بقسوتهم نجم إلى سطح البناية، ودفعتها نظراتهم المشتعلة إلى الانتحار.

للقلوب النقية مرح وطموح يملأ الأجواء، لكن عند اسودادها، تصير رفاهية الموت حلمهم الأكثر واقعية أمام قسوة العالم، فيخبوا نورهم، و يتحولون في غمرة الأسى إلى نجم على وشك الأفول.